

أسلوب التربية بالملاحظة من منظور إسلامي

أحمد محمد نجادات

المقدمة:

لم تترك التربية الإسلامية ممثلة في مصادرها الأساسية: القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، شيئاً يحتاج الناس إليه في أمورهم، إلا بينته بياناً شافياً بليغاً، قال تعالى: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾^(٢)، والمذهب الشمولي للتربية الإسلامية جعل للتعليم والتعلم طريقين: طريق من خارج الإنسان إذ القوى التي يمتلكها ترجع إلى الله سبحانه وتعالى - وهو طريق الوحي الإلهي الصادق الذي يوصل إلى الغيبيات التي لا تدخل تحت دائرة الحسّ، وطريق من داخل الإنسان والقوى التي يمتلكها، وهو طريق العقل والحواس والتجريب؛ الذي يدخل ضمن مجال المشاهدات الحسية، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(٣)، فالآية تشير إلى وسائل المعرفة: السمع والبصر، وهما أهم الحواس. والأفئدة جمع فؤاد، وهو قوة شاملة تشير إلى القوة العاقلة (العقل) القادرة على إدراك البديهيّات، وعلى الاستنتاج، وإدراك الأمور بشكل مباشر، فضلاً عن الإيمان بالوحي وما جاء عن طريقه من معرفة، والتربية الإسلامية تجعل نوعاً من التلاحم بين الطريقتين، فهي تستغل الحقائق التي يتوصل إليها بطريق العقل والحواس والتجريب

١- سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

٢- سورة النحل، الآية: ٨٩.

٣- سورة النحل، الآية: ٧٨.

لدعم المبادئ والمعتقدات التي يقرّها طريق الوحي مستنداً بذلك إلى تكامل العلم والإيمان، قال تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(٤)، فالإيمان يؤدي إلى العلم والعلم يؤدي إلى الإيمان ويشدّه^(٥).

كما أنّ الإنسان يولد وهو لا يعرف شيئاً، والعلم إنما يحصل بالاكتساب، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾^(٧)، فالله جلّت قدرته ﴿عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، ووضع فيه وفي بني البشر، خاصية القدرة على التعليم والتعلم، قال تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(٨)، وبعد أن يولد الإنسان ويتفاعل مع بيئته تبدأ عملية التعليم والتعلم، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"^(٩).

لقد تميّزت التربية الإسلامية بطبيعة خاصة متكاملة في الحصول على المعرفة وتنميتها، إذ تعتمد على فرضية أساسية وهي: أن الإنسان يولد مزوداً بأدوات ومنافذ المعرفة وبالحواس الأساسية، ومزوداً بمواهب واستعدادات كثيرة ومتنوعة، وبقدرات تختلف من إنسان لآخر، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا وَجَعَلْنَا لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾^(١٠)، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلْنَا لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾^(١١)، وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾^(١٢)، والسمع والبصر والفتاد تمثل الحواس، وهي أهم أعضاء

٤- سورة فصلت، الآية: ٨٣.

٥- ماجد عرسان الكيلاني، تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٦٥-٦٦.

٦- سورة النحل، الآية: ٧٨.

٧- سورة النساء، الآية: ١١٣.

٨- سورة العلق، الآيتان: ٤-٥.

٩- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، ج ٣، ص ٢٤٦.

١٠- سورة السجدة، الآيتان: ٨-٩.

١١- سورة الملك، الآية: ٢٣.

١٢- سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

الوعي والإدراك في الجهاز العصبي^(١٣)، يقول الأستاذ المودودي في تفسير هذه الآيات: "إن هذه الكلمات لم يتنزل بها الوحي في كتاب الله لتعني فقط مجرد الرؤية والسمع والتفكير، ذلك بأن "السمع" معناه: إحرار المعرفة التي اكتسبها الآخرون، و "البصر" معناه: تنميتها بما يضاف إليها من ثمرات الملاحظة والبحث، و "الفؤاد" معناه: تنقيتها من أدرانها وأوشابها ثم استخلاص النتائج منها، وكل هذه القوى الثلاث إذا ما تضافر بعضها مع بعض، نجمت عنها تلك المعرفة التي من الله سبحانه وتعالى بها على بني آدم، هذه المعرفة التي بها وحدها استطاع الإنسان أن يهزم سائر المخلوقات ويسخرها لإرادته وسلطانه"^(١٤).

فالحواس هي أساس المنافذ الفطرية والأولية لمعارف الإنسان، فالعين تنقل جزءاً من المعلومات وهي البصريات، والأذن تنقل لنا جزءاً آخر وهي الأصوات، وكذلك اليد لمساً والأنف شمّاً، واللسان ذوقاً؛ لأن الإدراك الحسيّ مزيج من إحساسات عضوية حيوية يتولّد عنها - في الجهاز العصبي - ومن خلال التفاعل إدراك عقلي.. فمثلاً كلمة الكعبة المشرفة لمن لم يشاهدها بعينه أو لم ير صورتها على أقل تقدير، تبقى ذات مدلول عام وغامض، بينما نجد أن تلك الكلمة ذاتها لمن رأى الكعبة بعينه وطاف حولها ولمس أركانها .. ذات معانٍ وأبعادٍ أكثر تحديداً ووضوحاً وتفصيلاً، والسبب أن مجرد سماع كلمة الكعبة، إذا لم يصحبها مشاهدة حسّية - أي خبرة مادية - تظلّ ناقصة مهما حاول المرّي أن يشرحها شرحاً وافياً، وأن يضعها وضعاً دقيقاً، أما من رآها ولمسها وطاف حولها، فإن مجرد ذكر تلك الكلمة كافٍ أن يثير مجموعة من الخبرات المعرفية المتفاعلة^(١٥).

إذا كانت ملاحظة الأشياء المحسوسة والمشمومة والمرئية والمسموعة والمطعومة .. ومشاهدة ما يقع تحت الحواس من وقائع وأشياء ومعطيات، أدوات استقبال لمثيرات خارجية، ثم تنتقل تلك الإحساسات بعمليات عصبية معقدة إلى المراكز العليا العصبية في الإنسان، والتي يتحوّل بها الإحساس إلى إدراكٍ ومن ثمّ إلى تأويلٍ وتفسيرٍ لتلك الإحساسات، وبعدها تصدر الاستجابات لقبول تلك المثيرات واستحسانها، أو رفضها وكراهيتها أو غير ذلك^(١٦). فالملاحظة أداة رئيسة للوصول إلى المعرفة

١٣- عبد الحميد الهاشمي، الرسول العربي المرّي، دار الهدى، الرياض، ١٩٨٥م، ص ٤٤٤.

١٤- إسحاق أحمد فرحان، التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، دار الفرقان، إربد، ١٩٩١م، ص ٨٣.

١٥- الرسول العربي المرّي، ١٩٨٥م، ص ٤١١.

١٦- المرجع السابق، ص ٤٤٤.

الإنسانية، وفي دراسة السلوك الإنساني، وخاصة في المواقف التي يتعدّر استخدام أدوات أخرى، أو حين يتعطل استخدام تلك الأدوات التي تعبّر عن حقيقة شخصية الفرد^(١٧).

لقد جعل الله سبحانه وتعالى عند الإنسان قابلية واستعداداً للتعلّم عن طريق الملاحظة، يقول تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١٨)، فالآية الكريمة تنصّ على أن يشهد عذاب الخاطئين طائفة من المؤمنين، وفي هذه الحالة يفترض أن يكون جمهور المشاهدين على علم بالجرم الذي ارتكب، ومن يشاهدون ما أنزل بالمجرمين من عقاب يحصل لهم التعلّم والانتعاض؛ لأن إقامة مثل هذه العقوبات تكون بمثابة زواجر وجوابر لمن ارتكب الجرم ولمن شاهد تنفيذ العقوبة، ويقول سبحانه وتعالى في الحديث عن ابني آدم: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾^(١٩)، - فيريه - بمعنى يعلمه، والقاتل لم يكن قد رأى من قبل ميتاً يدفن، لأن هابيل كان أول ميت في الأرض من أبناء آدم أو لأن قابيل كان حدثاً ولم ير من يدفن ميتاً، فلما رأى الباحث الغراب يوارى جثة أخيه تنبّه وتعلّم ففعل مثل ذلك بأخيه^(٢٠).

إن أهمية هذا النوع من التعلّم تظهر بجلاء في كثير من مجالات الحياة اليومية الطبيعية، ومواقف التفاعل الاجتماعي بكافة أنواعه في العمل والراحة والسفر والاحتفالات واللعب، وفي مواقف الإحباط والمسؤولية الاجتماعية، والمناسبات الاجتماعية، وفي مجال التوجيه والإرشاد^(٢١)، فمثلاً لا اعتقد أن الطالب يمارس جميع الشعائر الدينية، كالوضوء والصلاة والحج .. إلخ، دون أن يسبق ذلك مشاهدات لتطبيقات عملية حيّة أو مسجلة على أشرطة فيديو أو سينما يقوم بها اختصاصيون خبراء

١٧- القاضي يوسف مصطفى وآخرون، الإرشاد النفسي والتوجيه التربوي، دار المريخ، الرياض، ١٩٨١م، ص ٢٦٠-٢٦١.

١٨- سورة النور، الآية: ٢٠.

١٩- سورة المائدة، الآيتان: ٣٠-٣١.

٢٠- الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت، مج ٢، ج ٦، ص ١١٦.

٢١- حامد عبد السلام زهران، التوجيه والإرشاد النفسي، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ١٧٣.

في مجال التربية الإسلامية، كما أن الطالب لا يتقن تلاوة الآيات القرآنية دون مشاهدة القدوة المتقن لذلك، ولا يتمثل الآداب والسلوك الإيجابي إلا عن طريق ملاحظة القدوة الذي يمارس هذا السلوك.

مشكلة البحث :

على الرغم من أن أسلوب التربية بالملاحظة يضع بين يدي المرين مفتاحاً للنفاذ إلى عقول الناشئين وقلوبهم، وهم يدرسون موادهم المختلفة، لربط حقائقها وموضوعاتها بعضها ببعض وبأسبابها، بأسلوب فكري سليم، وطريقة موضوعية ومنهجية واضحة تنتهي بالناشي إلى الاستمتاع بيقين والوصول إلى الحق، بدلاً من التلجج في متاهات الشك والقلق الفكري المدمر، فإن الدراسات العربية المتعمقة في هذا المجال، خاصة في التربية الإسلامية دون المستوى المطلوب، وإن ما كُتب حول ذلك عبارة عن موضوعات متفرقة ومبعثرة في ثنايا الكتب وخاصة كتب البحث العلمي، عدا دراسة شاولي^(٢٢)، والتي كانت بعنوان: القولية أو التعلّم عن طريق الملاحظة، وقد أظهرت هذه الدراسة أهمية التعلّم عن طريق الملاحظة، والأسباب الكامنة وراء هذه الأهمية، وأن معظم البحوث والنظريات المتعلقة بظاهرة القولية تجري إما من وجهة نظر الاشتراط العملي (Operant Conditioning)، أو من خلال نظرية التعلّم الاجتماعي (Social Learning Theory)، كما أوضحت أن نتائج بعض الدراسات التجريبية أظهرت ثلاث تأثيرات رئيسية للتعلّم عن طريق الملاحظة هي: تأثيرات تتعلق بانتقال استجابات جديدة، أو بتعلّم سلوك جديد، وتأثيرات منعية وسامحة، وتأثيرات مستحقة، وقد ركزت هذه الدراسة على رأي باندورا وزميله وولترز (Bandura and Walters) حول نظرية التعلّم عن طريق الملاحظة والتي تتضمن أربع عمليات فرعية ذات علاقة متبادلة مع بعضها، هي: عمليات انتباهية (Attentional Processes)، وعمليات تذكيرية (Retention Processes)، وعمليات إعادة الإنتاج الحركي (Motoric Reproduction Processes)، وعمليات دافعية تعزيرية (Motivational and Reinforcement Processes). وبعد ذلك، حددت هذه الدراسة التطبيقات التربوية والاجتماعية للتعلّم عن طريق الملاحظة.

لا شك أن الباحث أفاد من نتائج الدراسة السابقة في الإطار النظري للدراسة الحالية، وبالرغم من أنها اهتمت بالتعلّم عن طريق الملاحظة في ميدان علم النفس فقط، وبالتعلّم دون التعليم، فقد اهتمت الدراسة الحالية بالملاحظة كأسلوب في التربية والتعليم، وركزت في ذلك على التربية

٢٢- أحمد توفيق شاولي، القولية أو التعلّم عن طريق الملاحظة، مجلة كلية التربية، جامعة أم القرى،

١٩٨٢م، ع ٩، ص ٩-٣٢.

الإسلامية المستمدة من منظور إسلامي، كما أنه ومن خلال اهتمام الباحث بالتربية الإسلامية لاحظ أن المربين في مختلف وسائطهم ومؤسساتهم التربوية (الأسرة، المدرسة، الجامعة...)، لا يقومون بمهمة مراقبة وملاحظة الناشئ قَصْدَ إعداد الجيل المسلم وتكوين المجتمع الفاضل، وكل هذا يشكل مبرراً للقيام بهذه الدراسة التي تتحدّد مشكلتها في الوقوف على أسلوب التربية بالملاحظة من منظور إسلامي.

أهمية الدراسة:

تتمثل أهمية الدراسة في إبراز التوجيهات القرآنية والنبوية في التربية بالملاحظة من خلال الآيات والأحاديث النبوية الشريفة لاستخلاص المبادئ والأسس المنهجية التربوية من خلالها، والاستفادة منها في التربية والتعليم، وخاصة أن الواقع الإسلامي المعاصر من الناحية التربوية يطبق المبادئ والأسس والنظريات التربوية المستمدة من الأمم التي قامت على أسس فكرية وضعية وفلسفة عقلية، وهذا لا يتناسب مع أصالة التربية الإسلامية وعقيدتها الإيمانية. وتستمدّ الدراسة أهميتها من الوظائف التربوية للملاحظة في الفكر التربوي الإسلامي، ومن الأهداف التي تتحقق من خلالها، إذ تعدّ الملاحظة من أهم الأساليب ذات القيمة التربوية للتوصل إلى المعرفة اليقينية في التربية الإسلامية. كما تكمن أهمية الدراسة من الناحية النظرية البحتة في: أنها محاولة علمية موضوعية عن أسلوب التربية بالملاحظة من منظور إسلامي، ومما لا شك فيه أنها إضافة معرفية علمية لأدبيات التربية الإسلامية، وخاصة - وفي حدود علم الباحث - أن الدراسات المتعمّقة في هذا المجال دون المستوى المنشود، كما أن نتائج الدراسة توقف الجهات المؤثرة في عملية التدريس ومعلمي التربية الإسلامية على ضرورة إجراء تطوير في الممارسات التربوية، وعلى أهمية استخدام أسلوب التربية بالملاحظة لمراقبة السلوك في البيئة الصّفيّة، أو في بيئات أخرى، لأن ذلك يسهل عملية تحقيق الأهداف المنشودة لدى المعلمين، ويبقى أثر التعليم لفترة زمنية طويلة، لذا فإنه كي يتسنى للمربي معلماً كان أم أباً أم أمّاً، أن يعرف كيف يربي من خلال النظر في الأنفس وفي الآفاق.. عقول الناشئين وحواسهم وعواطفهم حتى تنمو نمواً سليماً سويّاً، وحتى تتفتح مواهبهم على دراسة ظواهر الكون وحوادثه الكبرى، بقصد التعرف على خالقها ورحمته وعنايته بالإنسان، وأداء الواجب الإنساني واجب الشكر نحو هذا الخالق ونحو الإنسانية وجميع الكائنات^(٢٣). فيقود بذلك أفكار تلاميذه من

٢٣- عبد الرحمن النحلاوي، التربية بالآيات، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م، ص ٩.

مرحلة إلى أخرى دون أن يحملهم على محاكاته وترديد ما يقول من غير روية ولا تفكير، وهذا ما تقوم عليه التربية اليوم؛ على أن المربي الماهر يحمل تلاميذه على أن يفكروا بأنفسهم^(٢٤).

أسئلة الدراسة:

لقد ربّى القرآن الكريم نفس الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وأصحابه عليهم الرضوان ومن تبعهم، بكل ما في الكلمة من معنى، فعدّل سلوكهم، وصحّ مفاهيمهم، وحدّد مثلهم العليا، وقادهم بدافع من أعماق نفوسهم، حتى فتحوا أكبر الممالك والدول، وغيّروا نظام الحياة فيها، وقادوا شعوب العالم، وأخذوا بزمام الثقافة العالمية، ورفعوا الحضارة الإسلامية^(٢٥)، وكل هذا يدفع الباحث إلى أن يسأل:

ما هي الأساليب التربوية في التربية الإسلامية؟ وما هي الأساليب التي عدلت سلوك هؤلاء القادة الفاتحين حتى فعلوا هذه الأعاجيب، وجرت على أيديهم هذه الانجازات الخارقة للعادة؟

وعندما يستقرئ الباحث آيات القرآن الكريم ونصوص الأحاديث النبوية الشريفة يجد أن أول أسلوب يلفت النظر، وهو من أكثر أساليب التربية الإسلامية تكراراً وأشدّها وضوحاً وتصريحاً به في الآيات القرآنية ونصوص الأحاديث النبوية، هو: التربية بالملاحظة، لذا تهدف هذه الدراسة بصورة عامة إلى الوقوف على أسلوب التربية بالملاحظة من منظور إسلامي، ومن خلال هذا الهدف العام يمكن الإجابة على الأسئلة التالية:

- ١- ما هي طبيعة التربية بالملاحظة؟
 - ٢- ما هي الأهمية التربوية للملاحظة من منظور إسلامي؟
 - ٣- ما هو أهم أهداف أسلوب التربية بالملاحظة من منظور إسلامي؟
 - ٤- ما هي التطبيقات التربوية لاستخدام أسلوب التربية بالملاحظة خلال آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة؟
 - ٥- ما هي واجبات معلّم التربية الإسلامية في تنمية الملاحظة لدى الناشئة؟
- حدود الدراسة:

تركز الدراسة بصورة عامة على الوقوف على أسلوب التربية بالملاحظة من منظور إسلامي، وتكتفي بذكر نماذج من التطبيقات التربوية التي ترتبط بأسلوب الملاحظة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة علماً بأن هناك نماذج كثيرة فيها لم يبيّن الباحث في الدراسة.

٢٤- عبدالعزيز صالح وزميله، التربية وطرق التدريس، دار المعارف، مصر، ١٩٧٦م، ج ١، ص ١٩٨.

٢٥- التربية بالآيات، ١٩٨١م، ص ١١.

مفهوم التربية بالملاحظة:

أ- الملاحظة في اللغة:

تأتي من: لحظ لحظة يلحظه لحظاً ولحظاناً ولحظ إليه: نظر إليه بمؤخر عينه أي من جانبيه، يميناً كان أو شمالاً، ومن ذلك حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم: "كان يلحظ في الصلاة ولا يلتفت"، وهو أشد التفاتاً من الشزر، قال:

لَحَظْنَا هُمْ حَتَّى كَأَنَّ عُيُونَنَا بِهَا لِقْوَةٌ، مِنْ شِدَّةِ اللَّحْظَانِ

وقيل: اللحظة النظرة من جانب الأذن ومنه قول الشاعر:

فَلَمَّا نَكَتَهُ الْخَيْلُ، وَهُوَ مَثَابِرٌ عَلَى الرَّكْبِ، يَخْفِي نَظْرَةً وَيَعْبِدُهَا

وَاللَّحَاطُ بِالْفَتْحِ مُؤَخَّرُ الْعَيْنِ مِمَّا يَلِي الصَّدْعَ، وَالْجَمْعُ لُحُظٌ.

وَاللَّحَاطُ بِالْكَسْرِ: مَصْدَرٌ لِحَظْتِهِ إِذَا رَاعَيْتَهُ.

والملاحظة: مفاعلة من اللَّحَظَ، ومنه حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "جُلُّ نظره الملاحظة" وهو النظر بشق العين الذي يلي الصدغ، قال ابن بري: المشهور في لحاظ العين الكسر لا غير، وهو مؤخرها مما يلي الصدغ^(٢٦)، قال الأزهري: وهو أن ينظر الرجل بلحاظ عينه إلى الشيء شزراً، وهو شق العين الذي يلي الصدغ واللحاط كسحاب مؤخر العين^(٢٧).

ب - الملاحظة في الاصطلاح:

على الرغم من أن صليبا^(٢٨) يرى أن الملاحظة في علم الأخلاق هي: "المراقبة، تقول لاحظ سلوكه أي راقبه لمعرفة مطابقتها للقواعد المرسومة"، فإن وهبة^(٢٩) يتفق معه على أن الملاحظة (Observation) تطلق على ما يحكم فيه الحس، سواءً أكان ذلك الحس من الحواس الظاهرة أو الباطنة، وهي تقوم على التوجّه إلى الشيء في يقظة وانتباه للاطلاع عليه كما هو دون تبديل أو تغيير، ويرى التهانوي^(٣٠) أن الملاحظة: "توجّه النفس نحو المعلوم كما يظهر لك إذا حصل فيك صورة شيء والتفتت إليها بها، وربما تختلف الملاحظة عن حصول صورة الشيء بأن تجعل تلك الصورة آلة الملاحظة غير ذلك الشيء كما في معاني الحروف".

٢٦- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج ٧، ص ٤٥٨.

٢٧- محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، مج ٥، ص ٢٦١.

٢٨- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٣م، ج ٢، ص ٤١٥-٤١٦.

٢٩- وهبة مراد، المعجم الفلسفي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ٤٢٣.

٣٠- محمد أعلى التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مكتبة لبنان، بيروت، ج ٢، ص ١٦٣٩.

والملاحظة هي إحدى صور المعرفة التجريبية، ومقابلة للتجريب، إلا أن التقابل بينهما مختلف باختلاف العلماء: فزيمرمان يقول: "إن الملاحظة هي مشاهدة الظواهر على ما هي عليه في الطبيعة، على حين أن التجريب هو التدخل الفعلي في مجرى الطبيعة لتبديل ظواهرها ومشاهدة ما ينشأ عن هذا التبديل". وكلود برنارد يفرّق بين الملاحظة والتجريب، ويقول: "إن المجرّب لا يشاهد الظواهر على ما هي عليه في الطبيعة، بل يشاهدها في ظروف يهيئها بنفسه"، أي يُحدثها لغاية معيّنة، لذلك كانت التجربة عنده ملاحظة مُحدّثة (Observation Provoquee) الغاية، وتختلف هذه الغاية باختلاف الفكرة الموجّهة، فإن كان لدى العالم فكرة يريد اختبارها، كان تجريبه حقيقياً، وإن لم تكن لديه فكرة، كان تجريبه غير حقيقي، وقد يستعين العالم على اختبار فكرته بملاحظات تسمّى بالملاحظات المنجدة (Observation Invoquees)، ووظيفتها في اختيار الفكرة كوظيفة التجريب، أي لا تختلف عنها في شيء، وكثيراً ما تكون التجربة مجرد ملاحظة محدثة لتوليد فكرة جديدة في ذهن العالم، لا لاختبار فكرة سابقة موجودة لديه^(٣١). ويرى الخوالدة وعيد أن الملحوظة: "مراقبة شيء أو حدث أو موقف كما هو، وتسجيل ما يبدو من سلوكيات ونتائج، واكتساب الخبرة، ونقل المعرفة من تلك المراقبة"^(٣٢).

على الرغم من أن الباحثين في كتب البحث العلمي يتفقون على أن الملاحظة: أداة لجمع المعلومات وتوظيفها، فإنه يمكن تعريفها بأنها: توجّه النفس نحو المعلوم وفهم معنى الصفات واستحضارها في الذهن من خلال مشاهدة وتبصّر ما يقع تحت الحواس من أشياء وأحداث ومواقف، واكتساب الخبرة ونقلها من ذلك.

طبيعة التربية بالملاحظة:

تعدّ الملاحظة عنصراً أساسياً في البحث العلمي، وأداة مفيدة في جمع المعلومات المطلوبة، وهي لا تُعنى بمجرد الإحساس بالظاهرة أو السلوك وتفسيره فقط، بل تُعنى بتطوير مهارات مركبة أو معقّدة تفوق الإحساس بالسلوك واستقباله بواسطة الجهاز العصبي، وتدخل في هذا المضمار أيضاً العمليات العقلية التي تتوقف على خبرات الملاحظ التراكمية السابقة، والتي يستخدمها الملاحظ في تحليل الملاحظات وإعطائها معاني مفيدة، وكذلك تتضمّن الملاحظة في هذا المجال العمليات العقلية

٣١- المعجم الفلسفي، ج ٢، ص ٤١٦.

٣٢- ناصر أحمد، وعيد، الخوالدة يحيى إسماعيل، طرائق تدريس التربية الإسلامية، دار حنين، عمان،

٢٠٠٣م، ص ٣٤٨.

والاستدلال^(٣٣). وتتضمن الملاحظة وتفسيرها أربع عمليات سيكولوجية نفسية، ينبغي أن يوليها الملاحظ عناية كافية حتى تكون ناجحة، وهي:

- ١- الانتباه: يعني وجود حالة تأهب عقلي، أو حالة من اليقظة، يباشرها الملاحظ من عدد من المثيرات، لكي يحسّ أو يدرك وقائع أو ظروف أو أشياء ينتقي منها مثيرات معينة لكي يقوم بتفسيرها^(٣٤).
- ٢- الإحساس: يوصف على أنه الاستجابة لاستقبال المعلومات، والتعايش مع الظاهرة قيد الملاحظة.
- ٣- الإدراك: يقصد به تعرف الظاهرة التي تمّ الإحساس بها، وتفسيرها في ضوء الخبرات السابقة.
- ٤- الفهم: يعني العمليات العقلية اللازمة لإيجاد تصور جديد لتفسير المعلومات التي تفوق خبرات الملاحظ السابقة.

والملاحظة تنقسم إلى:

- خارجية (External): وهي مشاهدة الظواهر على ما هي عليه في العالم الخارجي.
- داخلية (Internal): وهي ملاحظة ما يحصل في النفس من الأحوال والظواهر.

كما تصنّف الملاحظة إلى:

- المباشرة: إذ يمضي الملاحظ وقته في الميدان، يراقب سلوك شخص أو مجموعة أشخاص في ظروف بيئية معينة مع العلم المسبق من الشخص أو مجموعة الأشخاص بأنهم تحت عملية المراقبة والملاحظة، وهي شائعة الاستخدام في المجال التربوي، كملاحظة سلوك المعلم والطالب أو السلوك الصفي.
- غير المباشرة: تتم عند مراقبة سلوك شخص ما وتسجيل المعلومات عن سلوكه دون أن يعلم بأن سلوكه مراقب، مثل: الملاحظة التي تتمّ باستخدام الكاميرات الخفية أو أدوات التسجيل الإلكترونية المخفية وغيرها.

٣٣- أهلاوات كابور وآخرون، البحث التربوي التطبيقي، وزارة التربية والتعليم، عمان، ط/١، ١٩٨٦م، ص ١٣٥.

٣٤- فان دالين، مناهج البحث في التربية وعلم النفس، ترجمة: محمد نبيل نوفل وزملاؤه، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٣م، ص ٨٤.

والفرد قد يلاحظ نفسه، ويقدم تقريراً ذاتياً (Self- Report) عن ميوله أو مشاعره، أو آرائه أو اتجاهاته أو أي سلوك، قال تعالى: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾^(٣٥)، ولكن قد يخفي الفرد بعض ما يلاحظه، وقد يزيّفه لسبب ما، وقد لا يكون قادراً على ملاحظة نفسه، خاصة في بعض المراحل العمرية أو في بعض السمات الشخصية، أو في بعض برامج التقويم التي تحتاج إلى ملاحظ غير متحيز، ولذلك تظهر الحاجة إلى ملاحظ خارجي^(٣٦).

وقد يتطلب الموقف ربّما أن يكون الملاحظ مشاركاً (Participant Observer) كأى فرد في المجموعة، ويخفي دوره كملاحظ، وبالمقابل؛ فقد يتطلب الموقف أن يوضّح دوره كملاحظ، ولكن بعد بناء علاقة وثام وثقة مع الأفراد في المجموعة، وذلك ليتمكن من ملاحظة أي شيء وباستمرار^(٣٧)، مثل: ملاحظة المعلم أنشطة الطلاب أو سلوكهم في الصفّ وخارجه، كما يتطلب الموقف أحياناً أن يكون الملاحظ غير مشارك أي يكون بعيداً عن النظر وغير معروف.

والملاحظ كذلك قد يكون متآلفاً مع الموضوع الذي يلاحظ كالمعلم الذي يلاحظ طلابه أو الآباء الذين يلاحظون أبناءهم، أو الصديق أو الزميل الذي يلاحظ أصدقاءه وزملاءه، وغير ذلك، وقد يكون غير متآلف، وهو الذي لا يكون لديه أي معلومات مسبقة عن الظاهرة التي يلاحظها أو البرنامج الذي قيد الدراسة، ويكون هذا مفضلاً، لأنه يعطي معلومات أكثر موضوعية عن الملاحظ الذي له علاقة ببرنامج الملاحظ^(٣٨).

لقد طوّرت التريويون أدوات وأجهزة متعددة لتساعد الباحث في إجراء ملاحظات أكثر موضوعية وثباتاً في تنظيم عملية جمع البيانات، مثل: قوائم الشطب "الرصد" (Checklists)، وسلام المقاييس والرتب (التقدير)، والسجلات اليومية (Daily Records)، ومقاييس العلاقات الاجتماعية "السوسيوميتير" (Sociometer)، والعينات الزمنية، والآلات الميكانيكية "الدايناموميتر" (Dynamometer)، والإلكتروميوجراف (Electromyograph)، والإبيسكوتستر (Episcoteser).

٣٥- سورة الذاريات، الآية: ٢١.

٣٦- عودة، أحمد سليمان وملكاوي وفتحي حسن، أساسيات البحث العلمي في التربية والعلوم الإنسانية، مكتبة الكتاني، إربد، ١٩٩٢م، ص ١٧٨.

٣٧- المرجع السابق، ص ١٧٩.

٣٨- البحث التربوي التطبيقي، ١٩٨٦م، ص ١٣٧-١٣٨.

الأهمية التربوية للملاحظة من المنظور الإسلامي :

الملاحظة من أساليب التعليم والتعلم والمعرفة اليقينية في التربية الإسلامية، وهي أداة ذات قيمة تربوية مهمة، إذ تسهم في تأدية وظائف كثيرة من أهمها:

١- تزود الإنسان بمعارف وعلوم جديدة، وتعلمه سلوكاً جديداً عن طريق ملاحظة ما يحدث أو ما يقوم بفعله الآخرون، فالإنسان قبل أن يلاحظ الأشياء يكون جاهلاً لها، وجاهلاً بحقيقتها، وبعد الملاحظة تحدث لديه عملية فكرية تؤدّي إلى الوصول إلى معرفة جديدة، فقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَآيُؤْمِنُونَ ﴾^(٣٩)، يعني أن المخاطبين لم يكن لديهم من المعرفة العلمية بما في السماوات والأرض إلا القليل، وإن الملاحظة لما في السماوات والأرض أدت إلى نمو معارف الإنسان العلمية، وإلى حصول علم جديد عنده بعد هذه الملاحظة وهو الإيمان بالله تعالى^(٤٠)، وكذا في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَتُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمَرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٤١)، إن ملاحظة الأطوار التي يمر بها الإنسان في حياته، وتدبر كيف تنشأ الحياة تعطينا علماً جديداً، وهو قدرة الله تعالى على بعث الإنسان في الآخرة للحساب، لأن إعادة الحياة أيسر من إنشائها^(٤٢).

٢- تجعل المرء يصدّق يقيناً بصحة المعرفة التي تدركها حواسه، وهذا واضح كل الوضوح في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن

٣٩- سورة يونس، الآية: ١٠١.

٤٠- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧١م، ج ٤، ص ٤٧٩.

٤١- سورة الحج، الآيتان: ٥-٦.

٤٢- التميمي وسمرين، نظرات في التربية الإسلامية، عمان، دار البشير، ١٩٨٥م، ص ٣٤.

لِيُطْمِئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا
ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٣﴾.

وسبب سؤال إبراهيم عليه السلام ربه عز وجل أن يريه كيف يحيي الموتى لا يعود إلى شكه في قدرة الله عز وجل، وإنما أراد أن ينتقل من مرحلة علم اليقين إلى مرحلة عين اليقين، وذلك بأن يرى أو يشاهد كيف يحيي الله الموتى. وتمت عملية إحياء الطيور الأربعة الميتة أمام إبراهيم عليه السلام بعد أن ذبحها وقطعها ومزقها وتنف ريشها وخلط بعضها ببعض، وجعل كل جزء على جبل وأبقى رؤوسها بيديه، كل ذلك ليكون أبلغ في الرؤية والملاحظة التي سألها إبراهيم ربه عز وجل، فلاطمئنان القلبني يعني ازدياد اليقين^(٤٤).

ويدل على صحة ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نحن أحق بالشك من إبراهيم" إذ قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطْمِئِنَّ قَلْبِي ﴾^(٤٥)، قال ابن الأثير^(٤٦): لما نزلت ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾؟ قال بعض من سمعها: شك إبراهيم عليه السلام ولم يشك نبينا، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم تواضعا منه وتقديما لإبراهيم على نفسه: "نحن أحق بالشك منه"، والمعنى: إننا لم نشك ونحن دونه فكيف يشك هو؟

تسهل على الإنسان تقويم الخبرات الحسية وتعديل السلوك الموجود والوصول إلى الحقيقة، ومثال ذلك واضح في حادثة تأبير النخيل، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بقوم يلقحون - شجر النخيل - فقال: لو لم تفعلوا لصلح، قال: فخرج شيصاً - أي سيئ الثمر - فمرّ بهم، فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا، قال: نعم "أنتم أعلم بأمر دنياكم"^(٤٧).

وهذه القيمة التربوية واضحة أيضاً في قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ

٤٣- سورة البقرة، الآية: ٢٦.

٤٤- الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٤م، ج ٣، ص ٥٠.

٤٥- فتح الباري: ج ٨، ص ٢٠١.

٤٦- ابن الأثير، جامع الأصول في أحاديث الرسول، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م، ج ٢، ص ٥٥.

٤٧- النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ، ج ١٥، ص ١١٨.

اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٤٨﴾.

فهذه الآيات تبين أن الكواكب والقمر والشمس أفلة لا تبقى على حالها، والربط بين هذه المعرفة التي تأتي عن طريق الحواس وبين مُسَلِّمَةِ أساسية مفادها: أن كل آفل لا يعقل أن يكون إلهاً يقود كل ذي عقل إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى. وقد اختلف المفسرون، فيما إذا كان إبراهيم عليه السلام ناظراً في الكون للوصول إلى الحقيقة أم مناظراً قومه مستخدماً هذا الأسلوب، والحق أن إبراهيم عليه السلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، ولم يكن ناظراً باحثاً عن ربه^(٤٩).

واستخدام إبراهيم عليه السلام لهذا الأسلوب لمحاورة قومه وإقناعهم بعبادة الله دلالة واضحة على أهمية الملاحظة، حتى وإن جاء إيمان إبراهيم عليه السلام نفسه عن طريق آخر، إذ أن في استخدامه عليه السلام لهذا الأسلوب في إقناع قومه دلالة على أهميته^(٥٠). الاستفادة من قابلية الإنسان للتعلم عن طريق الملاحظة في تعليم الطلاب التلاوة وشعائر الدين الحنيف والآداب وأنماط السلوك الإيجابية الواجب اتباعها، فيختار معلّم التربية الإسلامية القدوة المتقن لتلاوة القرآن الكريم، ليقوم بتلاوة الآيات القرآنية المقررة، ويلاحظ الطلاب تلاوته، لأجل الاقتداء بها، كما يختار القدوة المؤثرة ليقوم بالوضوء والصلاة على الوجه المشروع أمام الطلاب، كما يتم اختيار مثل عليا للقدوة ويتم تصويرها، وهي تقوم بجميع الخطوات والإجراءات والمناسك الواجب اتباعها قبل القدوم إلى الحجّ وأثناءه وبعده، كما يمكن ترسيخ الآداب والأخلاق والعادات الإسلامية الفاضلة عن طريق نماذج أفلام أو شرائط مصوّرة أو أي وسيلة أخرى، تعرض أنماط السلوك المرغوب القيام به لمحاربة وتعديل ما قد يتسرّب عن طريق بعض الممارسات والأفلام من سلبيات منحرفة لدى بعض الطلاب^(٥١).

—٤

٤٨- سورة الأنعام، الآيات: ٧٥-٧٨.

٤٩- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٩م، ج ٢، ص ١٥١.

٥٠- عبدالله وآخرون، مدخل إلى التربية الإسلامية وطرق تدريسها، دار الفرقان، عمان، ١٩٩١م، ص ١٦٦.

٥١- القولية أو التعلم عن طريق، الملاحظة، مجلة كلية التربية، جامعة أم القرى، ١٩٨٢م، (ع ٩) ص ٢٩-٣١.

٥- هناك عدة أسباب وراء الأهمية التي تكتسبها تأثيرات الملاحظة على التعلّم في حياتنا اليومية، فعندما تكون الأخطاء فادحة أو خطيرة فإنه يمكن الحصول على أدائها بدون أخطاء عن طريق تقديم نماذج مقتدرة توضح كيف يجب أن تؤدي النشاطات المطلوبة؟ كما أن بعض أنواع السلوك المعقّدة والخطرة لا يمكن تعلّمها وأداؤها إلا من خلال تأثير القدوة؛ فمهارات التلاوة وأعمال الوضوء والصلاة.. يستحيل إتقانها بدون إتاحة الفرصة أمام الطالب لمشاهدة المتقن فيها، فحينئذ تصبح الملاحظة جانباً من جوانب التعلّم لا غنى عنه، وفي الحالات التي يمكن فيها تعليم مهارات جديدة عن طريقة وسائل وطرق أخرى، فإنه من الممكن اختصار عملية اكتساب تلك المهارات بشكل ملحوظ عن طريق تقديم نماذج ملائمة لملاحظتها والافتداء بها^(٥٢).

أهداف أسلوب التربية بالملاحظة من منظور إسلامي:

يلاحظ من خلال الآيات القرآنية الكريمة، أن لهذا الأسلوب التربوي أهدافاً كثيرة وعديدة، وقد أشار النحلاوي^(٥٣)، إلى أهم هذه الأهداف وهي:

أ- تبين الحق وإظهاره:

قال تعالى: ﴿سُنُّرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾^(٥٤).
فنص كلام الله تعالى هنا على غاية إظهار آياته في الآفاق والأنفس وعرضها متميزة للناس لأجل أن يتبين الحق ويتضح جلياً لهؤلاء الناس.

ب- البرهان على توحيد الله (بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات):

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَدُوٌّ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ. ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانَّى تُؤْفَكُونَ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^(٥٥).

٥٢- المرجع السابق، ص ١٤-١٥.

٥٣- التربية بالآيات، ص ٦٩-٨٧.

٥٤- سورة فصلت، الآيتان: ٥٣-٥٤.

٥٥- سورة غافر، الآيات: ٦١-٦٣.

فهذه الدلائل على قدرة الله تعالى وحكمته في تعاقب الليل والنهار ولمصلحة الإنسان كانت نتيجتها: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ، فدلت على أن الغاية منها إثبات توحيد الله بإقرار أن: ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ، وأن الغاية العلمية ألا ينصرف الناس عن توحيد الله بالعبادة، لذلك وبخهم وعنفهم بقوله ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ .

ج- ترسيخ الإيمان باليوم الآخر بالحجة والبرهان:

قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥٦).

فهذا رجل أحياه الله بعد مائة عام وأرسل الريح فجمعت عظام حماره وأنشزها وكساها لحماً وهو ينظر، كل ذلك ليجعله "آية للناس" أي دليلاً على المعاد، فقد وجد مدينة القدس خراباً، بيوتها متهاوية، فأنكر في نفسه قدرة الله على إحيائها، فأراه الله دليل قدرته على الإحياء بعد الموت، فلما أحياه وجد المدينة قد عمرت وجعل الله قصته آية على المعاد إلى اليوم الآخر يراها أهل عصره ويتداولها الناس على مدى العصور (٥٧).

قال تعالى: ﴿ذَلِكْ جَزَاءُ هُمْ بَأْتُهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَعْتِنَا لَمُبْعُوثُونَ خَلَقًا جَدِيدًا أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَابَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٥٨).

فقوله جل جلاله: ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ ؛ يعني بدلائل قدرتنا على البعث، يفسره تنمة الآية: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَعْتِنَا لَمُبْعُوثُونَ﴾ ، فهذا النموذج من الآيات هدفه البرهان على البعث والنشور، لترسيخ الإيمان باليوم الآخر، وهذا الإيمان من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فالإنسان تواق أبداً إلى معرفة مصيره، والاطمئنان عليه، وهو مطبوع بعقله على أنه من البدهة ألا

٥٦- سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

٥٧- ابن كثير، مصدر سابق، ج ١، ص ٣١٤.

٥٨- سورة الإسراء، الآيتان: ٩٨-٩٩.

يكون هناك تنظيم وأحكام وإتقان وترتيب للأمور بعضها على بعض ، إلا ويكون وراءه هدف ومآل تصير إليه هذه الأمور، فهذا الكون المحكم، وهذا الإنسان المخلوق في أحسن تنظيم وأفضل تقويم إلى أجل يبلغه، وهذا التناغم والتناسق - المحكم بين الإنسان وكوكبه الأرضي بكل كائناته - كل ذلك، لا بد أن يكون له مرجع ومصير وحساب بين يدي أحكم الحاكمين، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرْتُؤُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾^(٥٩)، أي أن هذا الخالق الحكيم، الذي ترون آثار قدرته ودلائل حكمته لا يمكن أن يخلق شيئاً عبثاً من غير هدف، وأن الهدف رجوع الناس إلى ربهم وحسابهم بين يديه.

د- الابتلاء والاختبار:

هذا الهدف ينطلق في بعض الآيات مباشرة على بعض الأمم السابقة، وهو ابتلاء غير مباشر لمن يأتي بعدهم، فبني إسرائيل نزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَا هُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ وَأَتَيْنَاهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾^(٦٠)، وقد ابتلاههم الله حين انتزع الجبل ورفعهم فوقهم كأنه ظلّة، واختبرهم حين مسح فئة منهم قردة خاسئين، وربما حاولوا التمرد على العمل بآيات الله حيث أنزل على موسى التوراة وأمرهم أن يعملوا بما جاء فيها، ولم يفعلوا، فابتلاههم الابتلاء الأول ورفع فوقهم الطور، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٦١)، بعدها ذكر الله سبحانه وتعالى اختباره وابتلاءه للذين اعتدوا منهم في السبب فمسحهم قردة خاسئين، ثم قال مبيناً هدفاً آخر من الابتلاء: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٦٢)، فجمعت الآية هدفين: التنكيل بمن عصى أمر ربه، والتذكير والوعظ لمن يأتي بعد ذلك.

هـ- تربية الخوف من الله والابتعاد عما نهى عنه:

٥٩- سورة المؤمنون، الآيتان: ١١-١٢.

٦٠- سورة الدخان، الآيتان: ٢٢-٢٣.

٦١- سورة البقرة، الآية: ٦٣.

٦٢- سورة البقرة، الآية: ٦٦.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (٦٣).

فالأهداف الأساسية من الآيات التاريخية؛ التخويف من الوقوع في الذنوب والآثام التي وقعت فيها بعض الأمم السابقة، فسبب ذلك هلاكهم بالعذاب الذي سلطه الله عليهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب أليم، وقد وصف الله بعض تلك الآثار التي تركتها الأقسام البائدة وصفاً رائعاً يحقق هذا الهدف، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَاهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَازِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ (٦٤)، وقوله مخاطباً قوم عاد واصفاً عذابهم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أُوْدِيِّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٦٥)، وقوله في قوم عاد: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ. إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ. تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٌ مُتَقَعِرٍ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ (٦٦)، ثم قال في ثمود بعد أن أوجز الحوار بينهم وبين نبيهم: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ. فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِدَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ. أَلُنْفِي الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ. سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِيرِ. إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَبِرْ. وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ. فَنَادَوْا صَاحِبِهِمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ. إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ (٦٧).

فهذا الوصف الرائع، لو أحسن عرضه ولُفتت الأنظار إليه لترك آثاراً تربوية طيبة في تنمية العواطف ربانية ذات نتائج سلوكية جيدة، كتربية الخوف من عذاب الله، والاستقامة واستمرار العطاء، والابتعاد عن كل ما يسبب أذى الناس وعن كل غش أو جريمة أو مخالفة لشريعة الله وأوامره

٦٣- سورة الإسراء، الآيتان: ٥٨-٥٩

٦٤- سورة الحاقة، الآيات: ٦-٨.

٦٥- سورة الإحراق، الآيتان: ٢٤-٢٥.

٦٦- سورة القمر، الآيات: ١٨-٢١.

٦٧- سورة القمر، الآيات: ٢٣-٣١.

ونصائحها التي لخصها وأجملها بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٨).

التطبيقات التربوية لأسلوب التربية بالملاحظة في الكتاب والسنة:

توجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تحث الإنسان على الملاحظة والتفكير فيما يحيط به من أشياء وكائنات حيّة بما في ذلك الإنسان نفسه، قال تعالى: ﴿سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٦٩).

لقد أرشد الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة عباده إلى النظر بما في الأفاق، أي في أقطار السماوات والأرض؛ من الشمس والقمر والنجوم، والأشجار والنبات وغير ذلك من عجائب قدرة الله في خلقهم وتكوينهم، مما يدل على بديع صنع الله وحكمته (٧٠). كما يوجد في السنة النبوية أحاديث شريفة تحث الإنسان أيضاً على الملاحظة والتفكير من أجل التعلّم والتعليم، منها حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه الذي هو أصل عظيم في مناسك الحج حيث قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يرمي على راحلته يوم النحر ويقول: "لتأخذوا مناسككم فإنني لا أدري لعلني لا أحج بعد حجّتي هذه" (٧١). واللام في لتأخذوا مناسككم لام الأمر، والأمر معناه خذوا مناسككم، وتقديره: هذه الأمور التي أتيت بها في حجّتي من الأقوال والأفعال والهيئات هي أمور الحج وصفته، وهي مناسككم، فخذوها عنّي واقبلوها واحفظوها واعملوا بها وعلموها الناس (٧٢).

وفيما يلي أمثلة لبعض التطبيقات التربوية للتربية بالملاحظة من خلال توجيهات القرآن الكريم، ومن خلال التوجيهات النبوية في ذلك:

أ- توجيهات القرآن الكريم في التربية بالملاحظة:

أشاد القرآن الكريم بالتعليم والتعلّم عن طريقة مشاهدة الحواس، وهناك آيات كثيرة تحث الإنسان على الملاحظة والتفكير، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا

٦٨- سورة النحل، الآية: ٩٠.

٦٩- سورة فصلت، الآية: ٥٣.

٧٠- الصابوني، صفوة التفاسير، بيروت، دار القرآن الكريم، ١٩٨١م، مج ٣، ص ١٢٨.

٧١- صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٩، ص ٤٤-٤٥.

٧٢- المصدر السابق، ج ٩، ص ٤٥.

النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٧٣﴾، فالقرآن الكريم يهيب بالذين آمنوا ليؤدوا واجبه في بيوتهم في التربية والتوجيه والتذكير، فيقوا أنفسهم وأهليهم وأولادهم من النار، وكيف يقي المرءي أهله وأولاده ناراً إذا هو لم يأمرهم وينههم، ولم يراقبهم ويلاحظهم؟ قال علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾: أدبهم وعلموهم، وقال ابن عباس: اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصي الله، وأمروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار، وقال مجاهد: اتقوا الله وأوصوا أهليكم بتقوى الله، وقال قتادة: تأمرهم بطاعة الله وتنههم عن معصية الله، وأن تقوم عليهم بأمر الله وتساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية منعتهم عنها وزجرتهم عنها، وقال الضحك: حق على المسلم أن يعلم أهله من قرابته وإمائه وعبيده ما فرض الله عليهم وما نهاهم الله عنه^(٧٤)، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾^(٧٥)، أي استنقذهم من عذاب الله؛ بأمرهم بإقام الصلاة، واصبر أنت على إقامتها وهل يكون الأمر بالصلاة إلا في حالة التقصير والإهمال في حق الله تعالى، وكيف يعرف المرءي ذلك إذا لم يراقبهم ويلاحظهم، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(٧٦)، أي على الأب نفقة الأهل والأولاد وكسوتهم، وكيف يقوم بذلك إذا لم يراقب أحوالهم من الناحية الجسمية والصحية...؟.

إن للتطبيقات التربوية للتربية بالملاحظة تأثيراً في تعليم وتعلم المسلمين، والمتتبع لآيات

القرآن الكريم يجد النماذج الكثيرة من هذه التطبيقات، منها:

١- ذم القرآن الكريم الذين لا يندهشون بما يرون ولا يأخذون عبرة مما يشاهدون ولا يعون ما يسمعون، ووصفهم بأنهم ناقصو الإحساس وفاقدو الوعي، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ﴾^(٧٧)، فالذين لا ينتفعون بشيء من جوارحهم، ويغفلون عما حولهم من آيات الله في الكون وفي الحياة، ويغفلون عما

٧٣- سورة التحريم، الآية: ٦.

٧٤- تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٣٩١.

٧٥- سورة طه، الآية: ١٣٢.

٧٦- سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

٧٧- سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

يمرّ بهم من الأحداث، أولئك كالأنعام بل هم أضلّ، فللأنعام استعدادات فطرية تهديها، أما الجن والإنس فقد زوّدوا بالقلب الواعي والعين المبصرة والأذن الملتقطة، فإذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا، وإذا مرّوا بالحياة غافلين لا تلتقط قلوبهم معانيها وغاياتها، ولا تلتقط أعينهم مشاهدتها ودلالاتها، ولا تلتقط آذانهم إيقاعاتها وإيحاءاتها.. فإنهم يكونون أضلّ من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية الهادية.. ثم هم يكونون من ذرء جهنّم! (٧٨).

٢- أثار القرآن الكريم دهشة الإنسان نحو كثير من الأمور، وحضّ على البحث عن أسبابها، ليعرف الإنسان حقائقها، والدلالات والرموز التي توحى بالأسرار الكامنة وراءها، وهناك أمثلة كثيرة في القرآن الكريم على ذلك منها:

أ- أمر القرآن الكريم الناس بتدبر آياته وتفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ونهاهم عن الإعراض عنه، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٧٩)، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٨٠)، والاستفهام هنا توبيخي أي أفلا يتفهمون القرآن ويتصفّحونه ليروا ما فيه، لأن في ملاحظته وتدبره، والنظر إلى آياته والتمعن فيها، يظهر برهانه ويسطع نوره وبيانه، فأخباره صادقة ونظمه بليغة ومعانيه محكمة، لا تناقض ولا كذب فيما أخبر، ولا اختلاف ولا تعارض في ما وصف، ولا رداً ولا اضطراباً له في معنى، لأنه كلام الله المنزّل على الرسول صلى الله عليه وسلم فهو حق من حق ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

ب- وجّه القرآن الكريم الإنسان للنظر والتبصّر في نفسه، لأن ذلك من أقوى المؤثرات في تربيته. كما أنه حفّل بكثير من الوسائل والأسباب والأساليب التي تعرّف هذا الإنسان بذاته وتبصره بحقيقته وبمهمته في الحياة، قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٨١)، قال قتادة: من تفكّر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلّق ليعبد الله ولينت مفاصله للعبادة (٨٢)، ومعنى ﴿وَفِي﴾

٧٨- في ظلال القرآن، مج ٣، ص ٦٨٤.

٧٩- سورة النساء، الآية: ٨٢.

٨٠- سورة محمد، الآية: ٢٤.

٨١- سورة الذاريات، الآية: ٢١.

٨٢- تفسير القرآن العظيم، ١٩٦٩م، ج ٤، ص ٢٣٥.

أَنْفُسِكُمْ ﴿: أي في خلقكم وحياتكم وموتكم، وفيما يدخل ويخرج من طعامكم، وفي الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة، والشيب بعد السواد^(٨٣)، وكل فرد من هذا الجنس عالم وحده، ومرآة ينعكس من خلالها هذا الوجود كله في صورة خاصة لا تتكرر أبداً على مدار الدهور، ولا نظير له بين أبناء جنسه جميعاً لا في شكله وملامحه، ولا في عقله ومداركه، ولا في روحه ومشاعره، ولا في صورة الكون كما هي في حسه وتصوره، كل فرد نموذج خاص، وطبعه فريدة لا تتكرر، يمر من خلالها الوجود كله في صورة كذلك لا تتكرر^(٨٤)، لذا وجه القرآن الكريم الإنسان إلى:

- التبصّر في حقيقة نشأته الأولى، وفي أصله البعيد المخلوق من طين، وأصله القريب؛ المخلوق من نطفة وعلقة ومضغة ولحم وعظم إلى نفخ الروح، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(٨٥)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَعَيْرٍ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَمُوتُ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾^(٨٦)، فالإنسان إذا تفكّر في هذا التنبيه بما جعل له من العقل في نفسه، فيعلم أنه لم ينقل نفسه من حال النقص إلى حال الكمال، وأنه ليس هو الذي فعل تلك الأفعال بنفسه، وأن له خالقاً خلقه، وناقلاً نقله من حال إلى حال، ولولا ذلك لم تتبدل أحواله بلا ناقل ولا مدبر، قال بعض الحكماء: إن كل شيء في العالم الكبير له نظير في العالم الصغير، الذي هو بدن الإنسان، ولذلك قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(٨٧)، وقال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٨٨)، فحواس الإنسان أشرف من الكواكب المضيئة، والسمع

٨٣- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م، مج ١٧، ص ٤٠.

٨٤- قطب، في ظلال القرآن، ١٩٧١م، مج ٧، ص ٥٨.

٨٥- سورة المؤمنون، الآيات: ١٢-١٤.

٨٦- سورة الحج، الآية: ٥.

٨٧- سورة التين، الآية: ٤.

٨٨- سورة الذاريات، الآية: ٢١.

والبصر منها بمنزلة الشمس والقمر في إدراك المدركات بها، وأعضاؤها تصير عند البلى تراباً من جنس الأرض، وفيه من جنس الماء العرق وسائر رطوبات البدن، ومن جنس الهواء فيه الروح والنفس، ومن جنس النار فيه المرة الصفراء، وعروقه بمنزلة الأنهار في الأرض، وكبده بمنزلة العيون التي تستمد منها الأنهار، لأن العروق تستمد من الكبد، ومثانته بمنزلة البحر، لانصباب ما في أوعية البدن إليها كما تنصب الأنهار إلى البحر، وعظامه بمنزلة الجبال التي هي أوتاد الأرض، وأعضاؤه كالأشجار فكما أن لكل شجر ورقاً أو ثمرًا فكذلك لكل عضو فعل أو أثر، والشعر على البدن بمنزلة النبات والحشيش على الأرض، ثم إن الإنسان يحكي بلسانه كل صوت حيوان، ويحاكي بأعضائه صنيع كل حيوان، فهو العالم الصغير مع العالم الكبير مخلوق محدث لصانع واحد لا إله إلا هو^(٨٩).

- التنبيه إلى واقعه وما فيه من اختلاف في الألسنة والألوان والصور، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسْوَكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾^(٩٠)، وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ السِّنِّكُمْ وَالْوَالِدِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٩١) إن خلق الإنسان في هذه الصورة الجمالية السوية المعتدلة الشكل والوظيفة، أمر يستحق التدبر الطويل بالفعل، وإن عجائب الإبداع في خلقه لأضحى من إدراكه هو، وأعجب مما يراه حوله، فمع اتحاد الأصل والنشأة في تبني الإنسان نجد اختلاف الألسنة والألوان والصور، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة، كاللسان في الفم فيه اختلاف اللغات: من العربية والعجمية والتركية والرومانية.. إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله من اختلاف لغات بني آدم، وفيه - أي اللسان - النطق ومخارج الحروف، واختلاف الألوان في الصور: من البياض والسواد والحمرة، فلا تكاد ترى أحداً إلا وأنت تفرق بينه وبين الآخر، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمات أو الهيئة أو الكلام، ظاهراً كان أو خفياً يظهر عند التأمل، ولو تشابه جماعة في صفة لا بد من فارق بين كل واحد منها واختلافه عن الآخر، قال تعالى: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾^(٩٢)، أي نجعل أطراف أصابعه وبقية الأعضاء مستوية ويؤلف فيها حتى تستوي، وبما أنها لا تستوي ولا تتشابه كما

٨٩- الجامع لأحكام القرآن، ١٩٦٧م، مج ٢، ص ٣٠٢ - ٣٠٣.

٩٠- سورة الانفطار، الآيتان: ٧-٨.

٩١- سورة الروم، الآية: ٢٢.

٩٢- سورة القيامة، الآية: ٤.

أثبت خبراء الجنيات والبصمات في العلم الحديث تصديقا لما أخبر به القرآن الكريم، فإنه لا بد من فارق بين أفراد الجماعة المتشابهة في غالب الصفات.

- توجيه نظرة إلى كيفية نشأة طعامه وطعام أنعامه، وما وراء الطعام من تدبير الله وتقديره له، قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ. أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا. فَأَذْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وَعَنْبًا وَقَضْبًا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا. وَحَدَائِقَ غُلْبًا. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (٩٣)، أقرب شيء إلى الإنسان ألزم شيء له بعد نفسه طعامه الضروري الحاضر المكرر، لذا أمره الله ليتدبر كيف أنشأ طعامه الذي هو قوام حياته، وكيف هيأ له أسباب المعاش يستعد بها للمعاد، وكيف هيأ أسباب المعاش لأنعامكم التي سخرها الله لكم، قال الحسن ومجاهد: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ أي مدخله ومخرجه (٩٤).

ج- دعا القرآن الكريم إلى النظر إلى الظواهر الطبيعية لأنها أول دليل للوصول إلى المعرفة والعلم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٩٥)، وقال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ. فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ﴾ (٩٦).

إن النظر بالقلب المفتوح والعين المبصرة في هذا الملكوت الواسع الهائل العظيم، يدفع العقل إلى البحث لإدراك كوامنه وأسراره والتوصول إلى الإبداع الذي فيه، وملاحظة التوازن في بنائه، ولهذا دعا القرآن الكريم الإنسان إلى النظر في كل شيء في السماوات والأرض للانتهاج من الملاحظة إلى المعرفة والعلم الذي يطمئن إليه الإنسان، قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْجِبُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٧)، فالمنهاج القرآني يوجه النظر والسمع والقلب والعقل إلى النظر في خلق السماوات والأرض على هذه الكيفية المتناسقة، ويوجه إلى ملاحظة كيفية بنائهما وقيامهما بدون عمد؛ والبحث العلمي اليوم بالملاحظة والتجربة، يكتشف: أن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس مروراً سريعاً بحيث يظن الناس

٩٣- سورة عبس، الآيات: ٢٤-٣٢.

٩٤- الجامع لأحكام القرآن، ١٩٦٧م، مج ١٩، ص ٢٢٠.

٩٥- سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

٩٦- سورة الغاشية، الآيات: ١٧-٢١.

٩٧- سورة يونس، الآية: ١٠١.

وكأنها و مَنْ عليها ثابتة، ومن يستطيع أن يفهم هذا من غير معرفة هذه الحقائق عن طريق البحث والملاحظة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ (٩٨)، أليس هذا مثيراً للدهشة والإعجاب! كيف تقف الأرض بهذه العظمة في الفضاء؟ أي قوة تمسكها؟ إنها إشارة علمية إلى أسباب تلك الظواهر الكونية وهي القوانين العلمية، والجاهل قد لا يندهش لها ولا يأخذ منها عبرة، على الرغم من أن في ذلك آية تدل على دقة نظام الخالق الذي تقوم عليه السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿وَمِن آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ (٩٩)، أي بنظامه الذي لا يستطيع أن يقدره العاملون، قال تعالى: ﴿وَمِن آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْوَانِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٠)، (١٠١).

- السماء وارتفاعها وطبقاتها السبع وأفلاكها ودقة صنعها، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ (١٠٢)، وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١٠٣)، فالبروج هي النجوم والكواكب بضخامتها، وهي منازل النجوم والكواكب التي تنتقل فيها في مدارها، وإن نظرة مبصرة إلى السماء في الليلة الحالكة، وقد انتشرت فيها الكواكب والنجوم، تصوص بنورها ثم يبدو كأنما تخبو، ريثما تنتقل العين لتلبي دعوة من نجم بعيد.. ونظرة مثلها في الليلة القمرية والبدر حالم، والكون من حوله مهوم، كأنما يمسك أنفاسه لا يوقظ الحالم السعيد!، إن نظرة واحدة شاعرة بإدراك حقيقة الجمال الكوني، وعمق هذا الجمال في تكوينه (١٠٤).

٩٨- سورة فاطر، الآية: ٤١.

٩٩- سورة الروم، الآية: ٢٥.

١٠٠- سورة الروم، الآية: ٢٢.

١٠١- يالجن، توجيه المتعلم في ضوء التفكير التربوي الإسلامي، الرياض: دار المريخ، ١٩٨٢م، ص ١٧٢.

١٠٢- سورة الملك، الآيتان: ٣-٤.

١٠٣- سورة الحجر، الآية: ١٦.

١٠٤- في ظلال القرآن، ١٩٧١م، مج ٥، ص ١٩٦.

- الأرض وكيفية تمهيدها وتذليلها للحياة وتيسير التنقل فيها، قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٥)، ومعلوم أن الأرض كما يقول الجيولوجيون كانت ميتة لم يكن فيها أي شيء حي، فكيف ظهرت فيها كل هذه النباتات والحيوانات والإنسان، فأصبحت جنة بالنسبة لما كانت عليه في السابق، وبالنسبة إلى بعض الكواكب الهامدة التي يوجد فيها ما في الأرض من حياة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ. وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرَتًا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ. سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٦)، (١٠٧).

- الجبال وكيفية خلقها منصوبة شاهقة في ضخامتها وعلوها وتوزيعها، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (١٠٨)، فكيف تمر هذه الجبال مر السحاب؟ إن ملاحظتها تقود إلى علم جديد ومعرفة جديدة، هي أنها تساعد على تثبيت الأرض من أجل أن تكون صالحة لحياة الإنسان والحيوان والنبات، إذ لولا الجبال لطغي الماء على اليابسة ولاستحالت الحياة عليها.

د- دعا القرآن إلى النظر إلى الأنعام وملاحظة تكوينها وما فيها من منافع، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (١٠٩)، وقال: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (١١٠)، فالإبل وغيرها من الأنعام تم تكوينها بما يتناسب كلياً مع وظيفتها ومواطنها والطرق التي تسلكها والمسافات الشاسعة التي تقطعها، وملاحظة ما فيها من منافع

١٠٥- سورة الروم، الآية: ٥.

١٠٦- سورة يس، الآيات: ٣٣-٣٦.

١٠٧- بالجن، توجيه المتعلم في ضوء التفكير التربوي الإسلامي، الرياض: دار المريخ، ١٩٨٢م، ص ١٦٨.

١٠٨- سورة النمل، الآية: ٨٨.

١٠٩- سورة الغاشية، الآية: ١٧.

١١٠- سورة النحل: الآية: ٥.

يقودنا إلى إدراك النعمة الكبرى التي منحنا إياها الخالق العظيم، وإن هذه الكائنات إنما كان وجودها نتيجة لخلق خالق حكيم عليم قادر، وإلى تقديم الشكر على تلك النعم.

٣- دعا القرآن الكريم إلى النظر إلى تاريخ الأمم السابقة وأخذ العبرة منها، وكيف أنها شقيت عندما خرجت عن النظام السليم الذي رسمه للإنسان، وكيف سعدت عندما اتبعته؟ وأشار بأساليب تنبّه العقول إلى العواقب الوخيمة التي آلت إليها حالة تلك الأمم لأنها خرجت عن سنة الله فقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ (١١١)، وقوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (١١٢)، وقال: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ (١١٣)، وقال أيضاً: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ (١١٤)، ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ. وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ (١١٥)، ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِيًا مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (١١٦)، ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١١٧)، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١١٨).

إن النظر إلى آثار السابقين والمدن والقرى التي تركوها يقودنا إلى الاعتبار بما حدث لهؤلاء، وإلى عدم خلود الإنسان في هذه الدنيا، ومن هنا دعت مناهج التربية الإسلامية إلى الاستفادة من خبرات الأمم السابقة في الحياة، فكيف أدى بهم الانحراف الأخلاقي وفساد الأخلاق إلى هلاكهم مثلاً؟ فليس من الحكمة أن نطبق نظاماً أو قوانين اجتماعية معينة طالما أدى تطبيقها في الأمم الأخرى

١١١- سورة فاطر، الآية: ٤٤.

١١٢- سورة النمل، الآية: ٥٢.

١١٣- سورة الكهف، الآية: ٥٩.

١١٤- سورة الأنفال، الآية: ٥٤.

١١٥- سورة الحاقة، الآيتان: ٦-٥.

١١٦- سورة الأنعام، الآية: ٦.

١١٧- سورة آل عمران، الآية: ١٣٧.

١١٨- سورة الأنعام، الآية: ١١.

إلى فسادها، إذ من الممكن أن نعرف صحة القوانين أو صلاحيتها بالنظر إلى المجتمعات الحاضرة أو الماضية التي طبقتها، فالنظام مثلاً والنظافة والجدية وتطبيق القوانين الطبيعية والقوانين الأخلاقية أثبتت التجربة صلاحيتها وضرورتها للحياة الاجتماعية، وعلى العكس من ذلك، فالفوضى والفساد والكسل والجهل وسوء الأخلاق، كانت دائماً سبباً لفساد الأمم وتدهورها واضمحلالها وسقوطها. علينا أن نبحث عن أسباب سقوط الإمبراطوريات مثل الإمبراطورية الأموية والعباسية والعثمانية والفارسية والبيزنطية والرومانية واللاتينية، وقبل هذا عن أسباب هلاك قوم عاد وثمود ومدين وفرعون وآل لوط، فسوف نجد أهمها يرجع إلى الأخلاق في الدرجة الأولى، وكل قانون خلقي اجتماعي يؤدي تركه إلى فساد في مجال منوط به، فطبيعي أن ينتج عنه انتشار الظلم والتسلط على الأموال والأعراض وهو ما يسبب ضياع الأمن وضياع الثقة والمحبة بين الناس، ومن ثم يؤدي إلى تفكك النسيج الاجتماعي والتمزق النفسي للأفراد، مثلما تؤدي الفوضى الجنسية إلى انتشار الأمراض الخطيرة القاتلة وإلى تفكك الأسر وكثرة الجرائم وتشريد الأبناء. وإذا أردت أن تتحقق من ذلك فراجع تقارير كبار الأطباء والاجتماعيين في تلك المجتمعات التي سادتها الفوضى الجنسية، وكيف أنهم صاروا يصرخون ويحدرون المسؤولين فيها من الخطر الدائم والذي يهددهم في المستقبل، وأن التقدم الطبي أصبح اليوم عاجزاً عن إيقاف انتشارها^(١٩).

ب- التوجيهات النبوية في التربية بالملاحظة:

التربية بالملاحظة وسيلة لها أصولها في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد كان الرسول عليه السلام يصلي والمسلمون يشاهدون ما يقوم به ثم يتأسون به، فعن مالك بن الحويرث قال: أتينا النبي صلى الله عليه وسلم ونحن شبيهة متقاربون، فأقمننا عنده عشرين يوماً وليلة، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم رحيماً رقيقاً، فلما ظن أننا قد اشتبهينا أهلنا - أو قد اشتقنا - سألنا عن تركنا بعدنا، فأخبرنا، قال: ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم - وذكر أشياء أحفظها أو لا أحفظها - وصلوا كما رأيتموني أصلي، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم^(٢٠). كما ترك الرسول صلى الله عليه وسلم للعقل البشري مطلق الحرية في البحث والتجريب في أمور الدنيا ومعاشها خارج اختصاص النبوة والتشريع، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بقوم يلحقون - شجر النخيل - فقال: لو لم تفعلوا لصلح، قال: فخرج شيصاً - أي سيئاً

١١٩- توجيه المتعلم في ضوء التفكير التربوي الإسلامي، الرياض: دار المريخ، ١٩٨٢م، ص ١٧١.

١٢٠- فتح الباري، ج ٢، ص ١١.

- الثمر - فمرّ بهم، فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا، قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم^(١٢١)، والأحاديث التي تحضّ على الملاحظة والملازمة أكثر من أن تحصى، منها:
- عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيّته، فالإمام راع ومسؤول عن رعيّته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيّته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيّتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيّته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيّته"^(١٢٢).
- عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرّقوا بينهم في المضاجع"^(١٢٣).
- وجاء في حديث المسيء صلاته، عن أبي هريرة: أن النبيّ صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فدخل رجل فصلّى، ثم جاء فسلم على النبيّ صلى الله عليه وسلم، فردّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال: ارجع فصل فإنك لم تصلّ، فصلّى، ثم جاء فسلم على النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال: ارجع فصل فإنك لم تصلّ (ثلاثاً)، فقال: والذي بعثك بالحقّ فما أحسن غيره فعلمني، قال: إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راکعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها"^(١٢٤).
- ما معنى الرجل مسؤول؟ وما معنى المرأة مسؤولة؟ وما معنى مروا واضربوا؟ وما معنى ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم ومروهم وصلّوا ؟.. ما معنى ارجع فصل فإنك لم تصلّ؟ أليس معنى هذا كله أن يلحظ المربّي الناشئ أو المتعلّم، ويلاحقه ويلازم تأديبه، ويراقب حركاته وسكناته.. حتى إذا أهمل حقاً أرشده إليه، وإذا قصر في واجب حضّه عليه، وإذا رأى منكراً نهاه عنه، وإذا فعل معروفاً شكر له صنيعه ؟..^(١٢٥).

١٢١- صحيح مسلم بشرح النووي، ١٩٧٢م، ج ١٥، ص ١١٨.

١٢٢- فتح الباري، ج ٢، ص ٣٨٠.

١٢٣- المنذري، مختصر سنن أبي داود، مكتبة السنّة المحمدية، القاهرة، ج ١، ص ٢٧٠.

١٢٤- فتح الباري، ج ٢، ص ٢٧٧.

١٢٥- علوان، تربية الأولاد في الإسلام، دار السلام، حلب، ١٩٨١م، ج ٢، ص ٧٢٩.

لقد أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته القدوة الصالحة من حسن رعايته لأصحابه، وتفقدته لهم، وسؤاله عنهم، ومراقبته أحوالهم، ومحاذرة تقصيرهم، وتشجيع محسنهم، والعطف على فقرائهم ومساكينهم، وتأديب الصغار منهم، وتعليم الجهلة فيهم، وهناك نماذج حية واقعية من ملاحظاته صلى الله عليه وسلم لأبناء المجتمع، تؤكد حرصه على تربية الناس، ومعالجة أمورهم، وإصلاح أحوالهم، والرفع من مستواهم .. ومن نماذج ملاحظاته صلى الله عليه وسلم في:

١- التربية الاجتماعية: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إياك والجلوس على الطرقات"، فقالوا يا رسول الله: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: غضّ البصر، وكفّ الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر^(١٢٦).

٢- التحذير من الحرام: عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى خاتماً من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه وقال: "يعد أحدكم إلى حجرة من نار فيجعلها في يده!" ففيل للرجل بعدما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم: خذ خاتمك وانتفع به؟ فقال لا والله ما أخذه أبداً وقد طرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١٢٧).

٣- تأديب الصغار: عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم أي تحت نظره، وكانت يدي تطيش - تتحرك في الصفحة - في وعاء الطعام، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا غلام سمّ الله، وكل بيمينك، وكل ما يليك" فما زالت تلك طعمتي بعد^(١٢٨).

٤- إرشاد الكبار: عن عبدالله بن عامر رضي الله عنه قال: دعنتني أمي يوماً، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد في بيتنا، فقالت: ها تعال أعطك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أردت أن تعطيه؟" قالت: أردت أن أعطيه تمرًا، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما إنك لو لم تعطه شيئاً كتبت عليك كذبة"^(١٢٩).

١٢٦- فتح الباري، ج ٥، ص ١١٢.

١٢٧- صحيح مسلم بشرح النووي، ط/ سنة ١٩٧٢م، ج ١٤، ص ٦٥-٦٦.

١٢٨- فتح الباري، ج ٩، ص ٥٢١.

١٢٩- مختصر سنن أبي داود، ج ٧، ص ٢٨٠.

- ٥- التربية الخلقية: عن أبي بكر رضي الله عنه أن رجلاً ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم فأثنى عليه رجل خيراً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ويحك قطعت عنق صاحبك" يقول مراراً: "إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل: أحسب كذا وكذا، إن كان يرى أنه كذلك، وحسببه الله، ولا يذكى على الله أحد" (١٣٠).
- ٦- التربية النفسية: عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن أباه أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "إني نحلته مثل هذا؟"، فقال: لا، فقال: فأرجعه ..، وفي رواية: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفعلت هذا بولدك كلهم؟"، قال: لا، قال: "اتقوا الله واعدلوا في أولادكم"، فرجع أبي فردّ تلك الصدقة .. وفي رواية، قال عليه الصلاة والسلام: "فلا تشهدني إذا فإني لا أشهد على جور" (١٣١).
- ٧- التربية الجسمية: كان النبي صلى الله عليه وسلم يمرّ على أصحابه في حلقات الرمي فيشجعهم، فعن يزيد بن أبي عبيد قال: سمعت سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: مرّ النبي صلى الله عليه وسلم على نفر من أسلم ينتضلون، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان، قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما لكم لا ترمون؟ قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ارموا فأنا معكم كلكم" (١٣٢).
- ٨- نظافة المسجد: عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى نخامة في القبلة، فشق ذلك عليه حتى رأى في وجهه، فقام فحكّه بيده، فقال: "إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربّه - أو إن ربّه بينه وبين القبلة - فلا يبزقن أحدكم قبل قبلته، ولكن عن يساره أو تحت قدميه، ثم أخذ طرف رداءه فبصق فيه، ثم ردّ بعضه على بعض، فقال: "أو يفعل هكذا" (١٣٣).

١٣٠- صحيح مسلم بشرم النووي، ١٩٧٢م، ج ١٨، ص ١٢٦.

١٣١- المصدر السابق، ج ١١، ص ٦٧-٦٨.

١٣٢- فتح الباري، ج ٦، ص ٩١.

١٣٣- المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠٧-٥٠٨.

إن هذه الملاحظات والتوجيهات والمراقبة من الرسول صلى الله عليه وسلم، لم تقتصر على فرد دون فرد بل شملت جميع الأفراد كباراً وصغاراً، ولم تكن تختصّ بجانب معيّن في إصلاح النفس الإنسانية، وإنما كانت تشتمل جميع جوانبها المختلفة الإيمانية والعملية والنفسية والاجتماعية والجسمية والخلفية..، ولم تكن في أحد وسائط التربية دون الأخرى، إنما كانت منزلية ومدرسية واجتماعية.

واجبات معلم التربية الإسلامية في تنمية الملاحظة:

على المعلم بشكل عام ومعلم التربية الإسلامية بشكل خاص واجبات عديدة في هذا المجال، ومن هذه الواجبات:

- ١- الاهتمام بحواس الطلاب واستخدامها استخداماً مفيداً يساعدهم في الحصول على المعرفة اليقينية بصورة صادقة وحقيقية.
- ٢- أن يُنمّي في طلبته ملاحظة الظواهر الكونية وملاحظة الكائنات الحيّة المختلفة.. وإدراك ما بها من عجائب وتباين وتشابه ونواميس وأسرار، وأن يناقشهم ويستجوبهم بذلك، ويتخذ هذا سبيلاً للإيمان بالله تعالى، والاعتراف بوحدانية الله وألوهيته وقدرته وحكمته وسائر صفاته العليا وأسمائه الحسنى.
- ٣- أن يستخدم أسلوب الملاحظة عند تحقيق الأهداف المهارية والقلبية لدى المتعلمين، وفي جميع المراحل التعليمية ولفترات طويلة نسبياً، وأن تبدأ الملاحظة في زمن مبكّر جداً - أي - في الصفوف الأساسية الأولى، وتنتهي في آخر وقت ممكن للملاحظة أكبر ما يمكن من السلوكات، وجمع أكبر عدد من المعلومات الشائعة، فالمتعلم لا يتقن مهارة تلاوة الآيات القرآنية على الوجه الصحيح، إلا إذا لاحظ القدوة المتقن يتلوها أمامه، كما أنه لا يتعلم كيفية الوضوء على الوجه الأكمل، إلا إذا شاهد من يقوم بأعمالها أمامه على الوجه المشروع، ولا يتعلم كيفية الصلاة على الوجه المطلوب إلا إذا شاهد من يتخذه قدوة يؤدّيها أمامه بكل أركانها وسننها وواجباتها من قيام وركوع وسجود وجلوس وقراءة.. (١٣٤).
- ٤- استخدام الوسائل التعليمية المعينة ووسائل الإعلام والاتصال على تحقيق علم مفيد، لأنها مصادر ذات تأثير كبير جداً على أنماط السلوك، وخاصة أن مقدار الوقت الذي يتعرّض

١٣٤- مدخل إلى التربية الإسلامية وطرق تدريسها، ط/ سنة ١٩٩١م، ص ١٦٦-١٦٧.

خلاله معظم الأفراد لنماذج القدوة المقدّمة من خلال الصور، وبالدرجة الأولى من خلال شاشة التلفاز، فإن مثل هذه النماذج تلعب دوراً رئيسياً في تشكيل وتعديل سلوك الأفراد^(١٣٥).

٥- الدقة والسريّة في المعلومات التي يتمّ الحصول عليها من الملاحظة، والموضوعية والبعد عن الذاتية والآراء الشخصية في تسجيلها وتفسيرها.

النتائج والتوصيات:

تشير النتائج الكلية للدراسة إلى أن:

- أ- أسلوب التربية بالملاحظة أسلوب تربيوي إسلامي، استخدمه القرآن الكريم والسنة النبويّة، لأنه كما ذكر النحلاوي^(١٣٦) وسيلة:
- للهداية واجتذاب قلوب المنصفين من العلماء والمفكرين إلى الدخول في الإسلام وحمل راية الكفاح الفكري والعلمي مع الأمة الإسلامية صادر عن قناعة علمية وحماسة ذاتية خالصة من شوائب الرياء والمصلحة.
 - للتوصل إلى الحق في مسألة الوحي والكون، ووجود الإنسان ومصيره أو سبب وجوده والغاية من ذلك الوجود.
 - لتربية التفكير السليم عند الإنسان ولتربية الحواس على التبصر والاستبصار للوصول إلى الحق ولتربية الإنسان على العقيدة والسلوك القويم المستمد من وحي الله وشريعته.
- ب- مناهج التربية الإسلامية في التربية بالملاحظة قويم، ومن أفضل أسس التربية، إذا أخذ المرءون بأسسه وتعاليمه، وسرت على هديه وقواعده تربية الأفراد، فإنهم يصبحون لبنة صالحة في كيان المجتمع، وعضواً هاماً نافعاً في جسم الأمة الإسلامية الواحدة.
- ج- أسلوب التربية بالملاحظة يقودنا إلى علم جديد ومعرفة جديدة، وإلى اكتساب سلوك جديد وتعديل أنماط سلوكية موجودة، فهو يقودنا من خلال النظر إلى الإنسان والكون والأنعام.. إلى أن هذه المخلوقات بتكوينها وأسرارها وإبداعها كان وجودها نتيجة لخلق الله وإيجاده، وهذا بدوره يؤدي إلى الإقرار بوجوده وتوحيده بجميع أنواع التوحيد الثلاثة: الألوهية والربوبية والأسماء والصفات.

١٣٥- القولبة أو التعليم عن طريق الملاحظة، مجلة كلية التربية، جامعة أم القرى، ع ٩، ١٩٨٢م، ص ١٣.

١٣٦- التربية بالآيات، ١٩٨١م، ص ٧-٨.

د- إن من مسؤوليات المربيّ والأمور الهامة التي يجب أن يعلمها ضرورة ملاحظة ومراقبة وملازمة الناشئة والمتعلمين في تربيتهم وتعليمهم في جميع جوانب تكوينهم، فينبغي ملاحظة الجانب الإيماني في المتعلم. وما يتلقنه من مبادئ وأفكار واعتقاد، وما يطالعه من كتب ومجلات ونشرات ومن يصاحبه من أصدقاء وقرناء، وما ينتمي إليه من أحزاب ومنظمات، كما ينبغي ملاحظة الجانب الأخلاقي في المتعلم، فيلاحظ ظاهرة الصدق والأمانة وحفظ اللسان .. فيه، وظاهرة الخلق النفسي والإرادي، فيعرف من يقلد ومن يخالط، ومع من يجلس، وماذا يقرأ ويقتني؟ وماذا يكتب ويطلع؟ ويكون مهتماً وحكيماً في معالجة كل ذلك بالأسلوب المجدي، والطريقة الملائمة، وكما ينبغي ملاحظة الجانب العقلي والعملية بالمتعلم، فيلاحظ تحصيله العلمي وتكوينه الثقافي وتوعيته الفكرية وصحته العقلية وما يؤثر عليها.

إن مما ينبغي الاهتمام به، الجانب الجسمي للمتعلم، فيلاحظ التفقه الواجب عليه، والقواعد الصحية، التي أمر بها الإسلام من مأكّل ومشرب ومنام. ويحترز له من الأمراض السارية المعدية، ويلاحظ الوسائل الوقائية منها، وتعويدته على ممارسة الرياضة بالطريقة السليمة، وينبغي الاهتمام بالجانب النفسي للمتعلم، فيلاحظ فيه ظاهرة الخجل والخوف والشعور بالنقص والغضب، ويبحث عن أسباب ذلك، ويعالجه بالحكمة والموعظة الحسنة ويأخذ بقواعد الإسلام في ذلك، كما ينبغي الاهتمام بالجانب الاجتماعي للمتعلم، فيلاحظ فيه أداء حقوق الآخرين، وآداب الاجتماع مع الآخرين، والمشاعر النبيلة مع الآخرين، وكذلك ينبغي ملاحظة الجانب الروحي بالمتعلم، فيتأكد من جانب المراقبة لله سبحانه وتعالى عنده، وجانب الخشوع والتقوى والعبودية لله رب العالمين، وجانب التطبيق للعبادة وللأدعية الماثورة وغيرها، ويركز على ظاهرة المجاهدة النفسية والروحية، ويوازن في تربية المتعلم بينها وبين المجاهدة الدعوية والسياسية....

وفي ضوء النتائج التي أسفرت عنها الدراسة فإن الباحث يوصي بما يلي:

١- إن من واجب المربيين جميعاً أن يحركوا همهم ويثيروا عزائمهم ويضاعفوا من جهودهم ليقوموا بمهمة المراقبة والملاحظة في سبيل إعداد الجيل المسلم، وتكوين المجتمع الفاضل وإيجاد الدولة المسلمة.

٢- أن تتضمن مناهج التربية الإسلامية بشكل خاص ومناهج العلوم الأخرى مؤشرات للمعلمين لملاحظة تربية المتعلمين، وإشارات لتوجيه المتعلمين لملاحظة ما يحيط بهم من ظواهر مختلفة.

٣- أن تبذل المؤسسات التربوية الجهود لتنمية كفاءة وقدرة المعلمين على الملاحظة، وذلك بتعليمهم منهج الملاحظة العلمية، وتدريبهم تدريباً تربوياً، ليكون كل واحد منهم ملاحظاً مدرباً، يعرف ماذا يلاحظ؟، وفي أي وقت، وبأي وسيلة وأداة يمكنه القيام بذلك؟

٤- إجراء دراسات حول:

- أ- درجة ملاحظة ومتابعة معلّم التربية الإسلامية لجوانب تربية المتعلمين وتكوينهم.
- ب- اقتراح نماذج تدريسية تستخدم أسلوب التربية بالملاحظة لتدريس موضوعات فروع التربية الإسلامية التي تتلاءم مع هذا الأسلوب وفي مختلف الصفوف التعليمية.

* * * *